احتلال بحر الغزال

(تابع ما قبلهُ)

مشرع الريك

ذكرت في العدد الماضي وصولنا الى مشرع الريك ونزولنا في جزيرة هناك . والمشرع في اللغة مورد الشاربة واللفظة شائعة في السودان بهذا المعنى ويراد بها الطريق المنحدر الى الماء حيث لا يجرف ولا تبت يمنع ورود الناس والانعام . والاماكن التي يطلق عليها هذا الاسم كثيرة في السودان منها مشرع الزراف ومشرع زبيد ومشرع العبيد ومشرع الريك هذا سمي بذلك نسبة الى الريك وهي عشيرة من عشائر الدنكا النازلين في تلك النواحي . وقد رأيت من يكتب هذا الاسم مشرع الرق كانهُ منسوب الى الرق او الاستعباد والصواب ما ذكر . ويسميهِ بعضهم مشرع الشول نسبة الى الشول وهي امرأة عجوز كانت سيدة قومها في زمن الختامة في اواسط القرن الماضي وكانت لها نفوذ عظيم في تلك الايام فكان المخاسون يراعون جانبها ولا يعتدون عليها وعلى قومها

وكانت الجزيرة التي نزلنا فيها موحشة جداً ليس فيها ما يدلُّ على وجود الانس بل كانت خاوية خالية كأن لم يدخلها بشر قبلنا . وكان الماء حولها مغطىً بورق النيلوفر بعضهُ فوق بعض لا يرى الماء تحتهُ حتى يخيَّل للناظر ان السمن راسية في البر لا في الماء . ورأينا هناك طائراً من طير الماء قدر الحمامة يمشي على ورق النيلوفر كانهُ يمشي على اليابسة . وهناك ايضاً نوع من دجاج الماء اسود اللون صغير الجثة جميل جداً يرى سائراً بين البردي على جانب الماء . والطيور المائية الاخرى كثيرة جداً منها الحوصل وابو صخيل والغواص والغامة والبط والاوز وما اشبه

منشور الامان

وبعد وصولنا بيومين جاء بعض اهالي القرى المجاورة وبينهم شيخ عشيرة تعرف بالأو فجمعهم مبارك بك وتلى عليهم منشور الامان وقد جاء فيهِ اننا قادمون لاعادة الامن الى البلاد واحتلالها باسم الحكومة فكانوا يؤمنون وهم لا يفهمون شيئاً مما تلي عليهم . ثم وزع الهدايا عليهم وخلع على شيخ الأو خلعة سنية مما يخلع عادة على سلاطين السودان وملوكهِ وهي حلة حمراء مزركشة بالقصب . وقلَّدهُ سيفاً عربياً ووضع عمامة حمراء على رأسهِ فخرج فرحاً مسروراً يجر سيفهُ تيهاً وعجباً ويكاد يعثر باطراف ثوبهِ

الخرز والنحاس والعاج

ولمَّا امن الاهالي جانبنا وعلموا اننا لم نأتِ للنهب ولا نريد بهم سوءًا اخذوا يفدون علينا ومعهم الغنم والدجاج واللبن والسمن واللوبياء والبامية والذرة والسمسم والفول السوداني المعروف في الشام بفستق العبيد فكنا نشتري ما نحتاج اليهِ مقايضة بالخرز والنحاس والانسجة نشتري الخروف باسوارٍ من النحاس لا تزيد قيمتهُ على قرشٍ واحد والدجاجة ببضع خرزات ثمنها مليم او نحو اربع بارات . وكان معنا من الخرز انواع كثيرة مما يرغب فيهِ اهالي البلاد اشهرها نوع يعرف بالجنتور وهو اسود او احمر منقط بالبياض الحبة الواحدة منهُ قدر الحمصة وثمن الالف حبة نحو خمسين قرشًا . اما النحاس فلهُ قيمة كبيرة في تلك البلاد ولشدة رغبة الاهالي فيهِ كان بعض العساكر يقايضونهم بخرطوش البنادق بعد تفريغ الرصاص والبارود منهُ فصدر امرٌ مشدَّد يحظر ذلك عليهم . وقد رأيت مرَّة دجاجة مع احد الاهالي فقلت لهُ اتبيعها قال ايمها فتناولت سلكًا من النحاس طولهُ نحو شبر ووضعتهُ على كفي ووضعت جنبهًا على الكف الاخرى وقلت لهُ خذ احدى هاتين القطعتين ثمن دجاجتك فاخذ ينظر تارة الى السلك وتارة الى الجنبه كانهُ يقدر وزنهما فرأى ان السلك اكبر حجمًا فاخذهُ . واخذت واحدًا منهم مرة الى احدى البواخر واريتهُ ما فيها من ادوات النحاس الضخمة فكان ينظر اليها مندهشًا من غنى الحكومة . واشترى بعضهم نابين من العاج باساور وانسجة ونقود من الفضة تبلغ قيمتها كلها ٤٥ قرشًا وكان وزن الناب الواحدة منهما ١٣٥ ليبرة والاخرى ١٣٨ ليبرة وثمن النابين نحو مئة وخمسين جنيهًا وهما اكبر ما رأيت من الانياب . وقد يزيد وزن الناب الواحدة على ذلك كثيرًا فقد اهدي الى ملك الانكليز الحالي لمَّا زار مصر منذ سنوات ناب من العاج وزنهُ ١٨٤ ليبرة . وقرأت بعد عودتي من بحر الغزال ان بيتًا من البيوت التجارية الاميركية اشترى نابين وزن الواحدة منهما ٢٢٣ ليبرة والاخرى ٢٢٥ ليبرة وهما اكبر الانياب المعروفة . ويظهر ان رغبة السود في النحاس قديمة جدًّا فقد ذكر الدمشقي (القرن السابع للهجرة) في كتاب نخبة الدهر ان اهل الحبشة العليا يختارون الصفر على الفضة ويجعلون بهِ دولةً ودون الذهب وقال عن بعض طوائف السود ما نصهُ « والكفار و لهم تميم ودمدم فمن قارب المسلمين يسترون ابدانهم بجلود ومن بعد منهم يأكلون من وقع اليهم من الناس من غير جنسهم لشدة توحشهم من الناس وهم دمدم . والذهب في بلادهم كثير لكنهم لا يستعملونهُ وانما يستعملون النحاس يحمل اليهم فيتركهُ على اطراف ارضهم فاذا رأوهُ اشتغلوا بنهبهِ والقتال عليهِ فياخذ جالبوهُ ما قدروا عليهِ من الذهب ويهربون »

قبيلة الدنكا

ويعرف السود الذين في تلك الجهات بالدنكا وهم عشائر كثيرة اشهرها الجانق . لونهم اسود حالك وهم كالشلك والنوير وغيرهما من قبائل السود التي تقيم قرب الانهار والمستنقعات في اعالي النيل طوال الاعناق والاطراف يشبهون الطيور المائية في عاداتهم واشكالهم . قال شوينفورث في وصفهم ما تعريبهُ

« من النواميس الطبيعية ان الاقاليم المتشابهة تنشأ فيها اشكال متشابهة من الحيوانات على انواعها كما يتضح باجلى بيان في هذه البلاد . ومما لا شبهة فيه ان بين الانسان والحيوان مشابهة كلية في الشكل والعادات في كثير من الاماكن التي تختلف اختلافاً بيناً عما يجاورها من الاقاليم فاقامة الشلك والنوير والدنكا في السهول التي تكثر فيها المستنقعات على مقربة من النيل جعلت فرقاً كبيراً بينهم وبين السود المقيمين بين الصخور والآكام في داخل البلاد فنسبتهم الى سائر البشر كما قال هوغلن كنسبة الطيور المائية الى غيرها من ذوات الريش . وقد احسن كثيراً في هذا التشبيه فان الواحد منهم يقف ساعة من الزمان على رجل واحدة ويسند الاخرى عليها فوق ركبتها كما تفعل الطيور المائية . وان خطواتهم الطويلة وسيرهم على سهل بين الحلفاء لاشبه بخطوات القلق وسيره . ومما يزيدهم شبهاً بهذه الطيور نحافة اطرافهم ودقة اعناقهم وصغر رؤوسهم » . انتهى

ورجال الدنكا كلهم عراة لا يستترون بشيء وسلاحهم الحراب والدرق والدبابيس ويصنعون درقهم من الخشب أو جلود البقر والجواميس البرية ويحملون احياناً عصياً قصيرة ضخمة مصنوعة من خشب الطلح او الابنوس او الحرنيت وهو قرن الكركدن . ويتزينون بالخرز واساور العاج والنحاس واكثر ما يلبسون اساور العاج في العضد تحت الكتف واساور النحاس في العضد والمعصم . اما نساء تلك البلاد فسأفرد لهنَّ فصلاً خاصاً يليق بهنَّ لأن بعضهنَّ على جانب عظيم من الجمال

البعوض في مشرع الريك

وكان بين الجزيرة التي نزلنا فيها وبين البر خور او مستنقع عرضهُ نحو مئة متر وعمق الماء فيهِ يزيد على قامة الانسان فجعلنا فوقهُ طريقاً او جسراً (كبرياً) من النباتات المائية وكان الجسر طافياً على وجه الماء ونحن نسير عليهِ ذهاباً وايابا . ولم يمضِ زمن حتى جف الماء من المستنقع فصرنا نسير على اليابسة لكن جفاف الماء لم يخفف وطأة البعوض وهو كثير جداً هناك فكنا اذا غربت الشمس نجلس تحت الكلل هرباً منهُ ولا نخرج من تحتها قبل شروق الشمس وربما

اكلنا وشربنا وكتبنا رسائلنا تحت الكلل . وقد كتبت مرة كتاباً وكنت كلما سقطت بعوضة على وجهي اقتلها واضعها في علبة كبريت فارغة كانت امامي فامتلأت العلبة قبل ان اتيت على آخر الكتاب . وانواع البعوض هناك كثيرة منها بعض الانواع التي تنقل الحمى الملارية فلا عجب اننا اصبنا كلنا بهذا الداء . اما الاهالي فيبنون منازلهم بعيداً عن المستنقعات هرباً من البعوض وفيهم فضلاً عن ذلك مناعة من الملاريا فلا تصيبهم كما تصيب البيض

احتلال التونج

وبعد وصولنا ببضعة ايام اخذ سباركس بك فصيلة عن الجنود وبعض الضباط منهم البكباشي شمس والدكتور نجيب شديد واحمد افندي كامل وغيرهم وساروا الى نهر التونج على ١٢٠ ميلاً من مشرع الريك قرب مكان يسمى جور غطاس فوصلوا اليه بعد مسير ثمانية ايام على اقدامهم وكان هذا سيرنا في بحر الغزال دائماً لا فرق في ذلك بين الضباط والعساكر فان الدواب كانت قليلة ومعدة لحمل الذخيرة والمؤونة فقط . وكان مع هذه السرية بعض المهاجرين بينهم ثلاثة رجال وامرأة من اهل البلاد رآهم لورد كرومر في ام درمان فالبسهم الحلل الحمراء وقلدهم السيوف واهدت لادي كرومر الى المرأة بعض الملابس ومظلة حمراء . وقد اخبرني صديقي الدكتور نجيب شديد ان هؤلاء الرجال كانوا يسيرون معهم وهم عراة ثم اذا اقتربوا من احدى الحلل لبسوا ثيابهم وتقلدوا سيوفهم ولفت المرأة مظلتها ولو كان الوقت بعد الغروب فكان اذا تعب من المسير ورأى المرأة قد نشرت مظلتها عرف انهم ساروا على مقربة من الحلة التي ينزلون فيها فتجدد قواه

ووصلت السرية الى حلة التونج في آخر يوم من شهر ديسمبر سنة ١٨٩٩ فرفعت العلم المصري والعلم الانكليزي عليها ولم يكن معها غير بورجي واحد فتقدم وضرب السلام الخديوي ونادت العساكر « افندمز چوق يشا » لاول مرة في تلك البلاد بعد مضي خمس عشرة سنة

قرى الدنكا

ولم يبق في مشرع الريك الا النساء وعدد قليل من الضباط والجنود ثم رجع البكباشي يلتوى بعد ايام من التونج فقلت له قد بلغت روحي التراقي واحب ان اخرج من هذه الجزيرة اصطاد واحرك قدمي فقد بلغني ان فطيماً من الافيال يأتي الى الحلة المجاورة كل يوم فقال اذهب وقل لشيخها اني احب ان ارى صحبته وقد ارسلت في طلبه مراراً ولم يحضر .

تجار العاج في اعالي النيل

وقوف السود على رجل واحدة كاللقلق

فاخذت معي دليلاً من المهاجرين ورجلاً اسمهُ بلال وعسكريًّا من القسم الطبي اسمهُ عبد الجليل فلمَّا اقتربنا من الحلَّة رأينا اشجاراً مكسرة واغصانها مبعثرة في كل ناحية فاخذ الدليل غصناً واراني لعاب الفيل عليهِ وكان جديداً . ثم تقدمنا قليلاً فرأينا آثاراً اخرى تدل على ان الافيال كانت هناك منذ زمن قريب . ومن عادة الافيال انها اذا مرَّت في غابة كسرت الاشجار وفتحت طريقاً لها وربما كسرت الاغصان فقط واكلت الورق الذي على اطرافها وقد رأيت اشجاراً مكسرة او مقلوعة من عروقها يبلغ قطر جذع الواحدة منها اكثر من شبر

ولما وصلنا الى الحلَّة ورآنا النساء والاولاد هربوا منا ثم رأينا رجلاً سألناهُ عن منزل الشيخ فارانا اياهُ واذا بالشيخ جالس امام منزلهِ تحت شجرة اهليلج ومعهُ بضعة عشر رجلاً من قومهِ كلهم عراة اما هو فكان قد علم بقدومنا ولبس الحلة التي اهداها اليهِ سبارکس بك . وبعد ان اخذنا نصيباً من الراحة سألناهُ عن الافيال فقال مرَّ بنا قطيع منها منذ ساعتين ثم ارسل غلامين من غلمانهِ يفتشان عليها فعادا بعد ساعة وقالا انهما لم يجداها فقال الشيخ ابقَ هنا الى الماء فلابد ان تأتي الافيال لترد الماء بقربنا فقلت لا بد لي من العودة الى المعسكر والمبيت فيهِ طبقاً للاوامر قال انا اتوسط لك عند البك فلا يتغير خاطرهُ عليك قلت البك في التوتج قال انا شيخ هذا البلد وصاحب الامر فيهِ قلت لا بل انا صاحب الامر هنا وان البكباشي يتمنى امرني ان اخبرك انهُ كثير الشوق الى رؤية سحنتك فاحضر الى المعسكر غداً قال اشغالي كثيرة لا تسمح لي قلت نعم هي النوم تحت هذه الشجرة فضحك ثم وعدني بالحضور الى المعسكر وقام ودخل منزلهُ وخرج بعد ذلك وعليهِ حلة قديمة كان اهداها اليهِ الكولونل مرشان كانهُ يريتا انهُ في غنىً عن ملابسنا . ثم قدم لنا قرعة فيها قليل من اللبن الحامض فنفرت نفسي منهُ وكان بلال صائماً فلم يشرب شيئاً اما عبد الجليل فكان جائعاً وعطشانا فشرب واصيب باسهال شديد وبقي طول الطريق يلعن الشيخ وضيافتهُ

ورأيت ان اسأل القوم شيئاً عن معتقداتهم الدينية فقلت للشيخ هل تعرفون الله خالق هذا الكون ومدبرهُ قال لا قلت بماذا تؤمنون اذاً قال نؤمن بمن نسميهِ «دِنغ دِيت» اي الله المطر قلت هل تدعونهُ او تصلون اليهِ قال لا قلت اين هو قال لا ندري قلت واين مصيركم بعد الموت قال نضمحل نحن وسائر المخلوقات وكنا في ذلك سواء ثم اشار الى كلب هناك وقال تموت كما يموت هذا الكلب . وكانت بعد ذلك صلاة الظهر فقام بلال وصلى فكانوا ينظرون اليهِ متعجبين فقلت لهم اتدرون ما يفعل قالوا لا قلت انهُ يصلي الى الله خالق السموات والارض وما عليها وانهُ لم يشرب شيئاً من اللبن الذي قدمتموهُ لانهُ صائم فانتا في شهر رمضان وهو

شهر الصوم عند المسلمين فاستغربوا ذلك كثيراً. وكنت اكلمهم بلسان الترجمان لانهم لا يفهمون العربية

والحلة التي كنا فيها اسمها «لو» وهي كبيرة جداً و بيوتها متفرقة بين الاشجار وهي اكواخ مستديرة جدرانها مبنية بالخشب والطين وسقوفها مخروطة الشكل ومبنية بالخشب وعيدان القنا ومغطاة بالحشيش طبقة فوق الاخرى فلا ينفذها ماء المطر مطلقاً. وربما رفعوا ارض البيت على خشبات يغرزونها في الارض وقاية من الارضة والرطوبة فان الارضة كثيرة جداً في تلك البلاد

ويقتني الدنكا من الحيوانات الاهلية البقر والضأن والمعز والكلاب. وبقرهم ربانية اي من ذوات الاسنمة والضأن عندهم غريب الشكل لهُ شيء كالعرف على عنقهِ وكتفيهِ فهو بذلك شبيه بالاروى اي الضأن الجبلي. وكلابهم خليط بين الكلاب البلدية والسلوقية وهي تنبح على البيض فقط لغرابة شكلهم في تلك البلاد واعجب من هذا انني رأيت ظليماً عند احد الضباط في التوفيقية كان يهجم على البيض اما السود فكان لا يلتفت اليهم ولا يؤذيهم

والدنكا لا يذبحون بقرهم بل يأكلون لحمها اذا ماتت ونكاد تكون مقدسة عندهم وغاية ما يتمناهُ الواحد منهم ان يكون عندهُ قطيع منها فاذا جاء المساء جمع هو وجيرانهُ ما عندهم من الماشية وادخلوها الى زريبتها ثم جمعوا روثها واحرقوهُ وجلسوا على الرماد يتمرغون فيهِ ولعل هذا التمرغ في الرماد دليل الغنى بكثرة الماشية

ولما حان العصر تركنا الحلة وعدنا الى المعسكر ولم نكد نسير بضعة اميال حتى وصلنا الى غابة من شجر الطلح رأينا فيها اربع زرافات لم يكن بيننا وبينها اكثر من مئة متر فوقفنا نتفرج عليها، وحدثتني نفسي ان ارمي واحدة منها على انني رأيت ان لا لذة في صيدها او بالحري قتلها على هذه المسافة ولا فائدة منها فلا نقدر ان نحمل لحمها ولا وقت عندنا لسلخها واخذ جلدها هذا فضلاً عن ان السردار اذن لنا في صيد ما شئنا من الحيوان الاَّ الزراف والنعام فاطعت الامر في ما يتعلق بالزراف وخالفتهُ في صيد النعام كما سيجيء لان الانسان ضعيف الارادة في بعض الاحيان ويقدر ان يخفي ريش النعام اما جلد الزراف فكبير جداً ويصعب اخفاؤهُ. فتركنا الزرافات وشأنها وسرنا واذا باربعة ثيائل قد اعترضت لنا في طريقنا فرميت واحداً منها وحملنا رأسهُ وشيئاً من لحمهِ الى المعسكر. والثيتل نوع من بقر الوحش كثير جداً في تلك البلاد وكان اكثر صيدنا منهُ

الدكتور امين المعلوف